جون م. غانم

الاستشراق والقرون الوسطى

ثلاث مقالات حول الأدب والفن المعماري والهوية الثقافية

ترجمة: عبلة عودة

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة (مشروع كلمة)

CB353 .G2912 2011
Ganim, John M., 1945
[Medievalism and Orientalism]
الأستشراق و القرون الوسطى: ثلاث مقالات حول الأدب والفن المعماري والهوية الثقافية / تأليف جون م. غانم؛ ترجمة عبلة عودة؛ مراجعة أحمد خريس. -ط. 1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 208 ؛ 14×21سم.
ترجمة كتاب: Medievalism and Orientalism: three essays on literature, architecture, and cultural identity
تدمك : 978-9948-01-997-8
1. الاستشراق والمستشرقون - تاريخ.
2. العصور الوسطى-- تاريخ. أ. عودة، عبلة. ب. خريس، أحمد، 1970- ج. العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
John M. Ganim
Medievalism and Orientalism: Three Essays on Literature, Architecture and Cultural Identity
Copyright© John M. Ganim, 2005, 2008.
"First published in English by Palgrave Macmillan, a division of St. Martin's Press, LLC, under the title Medievalism and Orientalism by John M. Ganim. This edition has been translated and published under licence from Palgrave Macmillan. The author has asserted his right to be identified as the author of this work.

كلمة KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 171 6576 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة «مشروع كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ «مشروع كلمة»
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الاستشراق والقرون الوسطى

المحتويات

شكر وعرفان..... 7
تمهيد 9

الفصل الأول، القرون الوسطى: جنس أدبي 37
الفصل الثاني، القرون الوسطى: الأصول والأنساب أو الشرق الأبيض ... 103
الفصل الثالث، القرون الوسطى: وسيلة عرض..... 145

المراجع 181

شكر وعرفان

لم يكن هذا الكتاب ليرى النور لولا دعم مؤسسة جون سايمون غوغينهايم وجي آر. ميموريال؛ لذا فأنا ممتن لهذه المؤسسة أشد الامتنان، كما أوجه شكري العميق إلى كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية في جامعة كاليفورنيا على منحي إجازة بحثية مكنتني من إتمام هذا الكتاب، وأتوجه كذلك بالشكر إلى اللجنة الأكاديمية في هيئة البحث على تزويدي بعدة منح للسفر داخل البلاد وخارجها، كي؛ أزور المكتبات المختلفة، وأحصل على الوثائق المطلوبة. ولن أنسى في هذا السياق زملائي في القسم، الذين لم يبخلوا يوماً بالنصيحة والدعم، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنهم جميعاً.

لقد قُدِّمت طروحات الكتاب في عدة محاضرات ومؤتمرات عُقدت سابقاً، ولا بد لي هنا أن أشكر القائمين على تنظيم هذه الفاعليات ومنهم: أندي كيلي من مركز الدراسات القروسطية وعصر النهضة في جامعة كاليفورنيا– لوس أنجليس، وسيث غامبريشت وهوارد بلوش وستيفن نيكولاس الذين قاموا بدعوتي للمشاركة في ندوة حول القرون الوسطى في جامعة ييل، كما أشكر ديفيد والاس على ملاحظاته في ذلك اللقاء.

أتقدم بالشكر كذلك إلى نادي القرون الوسطى في نيويورك، ولاسيما دان روبي وبام شينغورن على دعوتهما لي؛ لألقي محاضرة سنوية في النادي.

الشكر موصول كذلك إلى نانسي فان دوسن من جامعة كليرمونت، وهي عضو في جمعية المسيحية والعصور القديمة كذلك، على اللقاءات البناءة التي عقدتها حول الموضوع، والتي أثرت هذا الكتاب بشكل واضح. وأقدم شكري العظيم للسيدة ليندا جورجيانا في جامعة كاليفورنيا، وإيرني فرادنبيرغ، وفريق الأبحاث في جامعة كاليفورنيا– سانتا كروز، وخاصة جوزيف شيلديرز.

لا بد أن أذكر أيضاً البروفسور جاك فيسياك، وشيلا ديلاني على دعوتهما لي للمشاركة في ندوة حول الأدب القروسطي، واللغة، والثقافة في جامعة ميكيويكس في بوزنان– بولندا.

أهدي هذا الكتاب بالدرجة الأولى إلى زوجتي، فلطالما ألهمتني ثقافتها الواسعة وحضورها الرائع، ولا يفوتني أن أشكر لورا وليزا وجون وبيل وفيفيان الذين أظهروا دائماً الدعم والتفهم لما أقوم به. وأخيراً أذكر الصغار جوليت وروزا وجاك وبراندون وميشيل وأندريا وأيل والصغير راي؛ لأنهم سيفرحون حتماً عندما يكبرون ويجدون أسماءهم مدرجة ضمن صفحات الكتاب.

تمهيد

أين وطني؟ أيكون المحيط الهادي؟
أهي شواطئ الشرق الثرية؟
أم هي القدس؟
كل المضائق، ولا شيء غيرها
يؤدي إلى وطني
آنيان[1]، ماجلان، جبل طارق
هذه هي طرقي
تأخذني حيث عاش يافث، وربما حام وسام[2].

جون دون، السوناتة المقدسة.

في العالم القديم، في الشرق، قناة السويس
ينساب البحر بأمواجه الرقيقة
غير أن صرخة الروح
لا تنفك تؤرقني
الماضي، الماضي، الماضي
أرجع إلى الماضي البعيد

والت ويتمان، الطريق إلى الهند.

---

(1) مضيق آنيان: هو جزء من الطرق البحرية الأسطورية التي تربط بين المحيط الأطلسي والمحيط الهادي، وظهر اسم هذا المضيق للمرة الأولى في إحدى الخرائط البحرية الإيطالية عام 1562. (المترجم)

(2) أبناء نوح: يافث، وهو أصغر أبناء نوح وانبعثت من سلالته شعوب أوروبا، وحام ويعتقد أنه والد شعوب إفريقيا، وسام أكبر أبناء نوح وهو والد الآشوريين والعبرانيين والعرب والآراميين. (المترجم)

يعرض المشهد التالي من «كتاب صلاح الدين»؛ محرر القدس، تسلمه المدينة من الصليبيين:

«يقول صلاح الدين للقائد الصليبي: أخبر قومك أننا لن نعاملهم كما عاملونا عندما استولوا على المدينة أول مرة، لقد علمت وأنا طفل صغير بالفظائع التي ارتكبها غوفري، وتانكريدي في المدينة قبل تسعين عاماً، حيث قُطعت رؤوس الأطفال، وعُلقت على أسنّة الرماح، وأُحرق السكان من جميع الأعمار، وغرقت الشوارع في أنهار من الدم. الآن يريد بعض الأمراء أن يغسلوا هذه الشوارع بالدماء من جديد، ولكن هذه المرة بدمائكم أنتم، ويذكروننني دائماً بأن العقاب لا بد أن يكون من جنس العمل، فالعين بالعين والسن بالسن».

يظهر صلاح الدين هنا رمزاً مناقضاً تماماً لرموز الصليبية المتطرفة، فضلاً عن كونه أسطورة عسكرية إسلامية، وبذلك يغدو هذا الكتاب نقطة مضيئة في بحر الكتابات، والأبحاث الغربية التي تناولت هذا الموضوع. وعند تتبع صفحات الكتاب وفقراته نجد أن المسيحية الغربية تظهر كانعكاس للتعصب، والتطرف، والحقد بصوره كافة، إذ يتمثل الغرب في هذا الكتاب في الخونة، والمتطرفين المعادين للسامية، وذوي العقول الضيقة، فيما عدا بعض النماذج القليلة المستنيرة التي تمكنت من سبر أغوار حقيقة الإسلام. أما الشرق فيمثله مفكرون مبدعون، وقادة عسكريون إنسانيون متسامحون، وقيادات سياسية تنتمي إلى هويات عرقية مختلفة، وقوميات متعددة. إنه الشرق؛ منبع القيم الأخلاقية العالمية، الذي يذكر الغرب دائماً بها وليس العكس، وهو بذلك يحدد الغرب ويعرفه من جديد.

إن «كتاب صلاح الدين» يقلب مفهوم الاستشراق، ويعيد تعريفه من الأساس[1]. وليس «كتاب صلاح الدين» رواية من القرون الوسطى على الإطلاق، بل هو –على العكس– رواية نُشرت في العام 1998، وكتبها المؤلف البريطاني الباكستاني، والناشط السياسي طارق علي؛ لذلك فهي ليست مجرد سرد لسيرة صلاح الدين الذاتية ضمن إطار العصور الوسطى العربية، لكنها ترسخ أيضاً رؤية سياسية تأملية لليسار الغربي والعالمي عموماً.

تزخر هذه الرواية بالعديد من الحبكات الثانوية التي تعكس مرحلة ما بعد الإمبريالية، وما بعد الحداثة التي عاشتها بريطانيا إبان الستينيات، وفي أثناء حكم السيدة تاتشر. لقد كان صلاح الدين محارباً كردياً، وظهر انتماؤه إلى هذه الأقلية بوضوح في الرواية، أما السرد في الرواية فيقوم على قصة بطل كردي يرويها كاتب يهودي، والقيادة البطولية لصلاح الدين تبدو مهزوزة أحياناً، فالقائد يعاني غالباً من المرض، ويحسب خطواته بدقة ويعتمد على التكتيكات السياسية أكثر من اعتماده على الأفعال البطولية، وهو –حتى بعد استعادة القدس بالكامل– لا يطرد الفرنجة كلهم، وإنما يعقد معاهدة تنهي الحملة الصليبية على المدينة، وهو ما حدث تاريخياً بالفعل، بحيث تبدو الرواية أحياناً وكأنها سلسلة مجازية من المفاوضات السياسية، والثقافية، والشخصية.

تعبر رواية «كتاب صلاح الدين» عن وعي مكثف بمرحلة ما بعد الكولونيالية، فالصليبيون احتلوا لقرون الساحل الشرقي للمتوسط، وقد أدى وجودهم إلى تفكيك المسلمين، وتناحرهم حول أهداف سياسية مختلفة، لكن –وفي الوقت ذاته– أدى اختلاط المسيحية، والإسلامية، واليهودية في المنطقة،

(1) راجع إدوارد سعيد: «الاستشراق»، Orientalsm (New York: Pautheon Books, 1978.
وللمزيد حول الاستشراق والأنجلوساكسونية راجع:
Allen J. Frantzen, Desire for origins: New Language, Old English, and teaching the Tradition (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 1990).

ووجود هذا التنوع الكبير من الأديان، والثقافات في مكان واحد، إلى تلاقح غريب، وظهرت تحالفات غير مفهومة انعكست كلها في هذه الرواية. وإذا اعتبرنا أن «كتاب صلاح الدين» رواية تاريخية، فإن هذا التاريخ ينبثق بالتأكيد من منابع متنوعة وتواريخ عدة متلاقحة لتاريخ الشرق والغرب، وهي أيضاً رواية تاريخية حديثة إن صح التعبير، تغوص في التاريخ القروسطي، وتعيد بناءه بصورة حداثية مميزة.

يقلب «كتاب صلاح الدين» التصنيفات النمطية للآخر، التي تجذرت في أواخر فترة القرون الوسطى، ولكن لا بد هنا أن نتذكر أن عدداً لا بأس به من الأفكار السائدة عن القرون الوسطى في الغرب، وبخاصة عندما بدأ الغرب ذاته يخطو نحو الحداثة، كانت تعتمد على تصنيفات جغرافية، وتاريخية وكأن الماضي [يعبر] عن بلاد أخرى مختلفة، كما جاء في افتتاحية رواية إل بي هارتلي «The Go-Between»، التي لقيت شعبية كبيرة بين القراء[1] في خمسينيات القرن العشرين.

سنحاول في الفصول القادمة تقديم الحجج؛ لإثبات أن هذه المقولة بالتحديد: «الماضي بلد آخر» صحيحة حرفياً بالنسبة إلى أحد جوانب الماضي الأوروبي وهو القرون الوسطى، أي الفترة التي يعتبرها المؤرخون نقطة البداية في تكوين الهويات القومية الأوروبية، غير أن هناك أيضاً من ينظر إلى التاريخ القروسطي الأوروبي أنه نتيجة للغزوات الخارجية، والتأثيرات الأجنبية التي تدخلت في تغيير مسار التاريخ، ولذلك فإن الفصول القادمة من هذا الكتاب ستحاول تتبع التعبيرات، والمصطلحات التي تعبر عن هذه الهوية الهجينة، والعلاقة الوثيقة بين الاستشراق والنزعة القروسطية.

ما ينطبق على المكان، ينطبق أيضاً على الزمان، فنحن نرى أن الحاضر ليس

(1) L.P Hartley, The Go-Between (London: H. Hamilton, 1953), 1.

نقطة انطلاقنا نحو المستقبل وحسب، وإنما نعترف في عرضنا لأساليب المجتمع المدني أن الماضي مازال يسكن عقولنا، ويتجلى في جهودنا لإقامة الحاضر، وكذا فإن تذكر الماضي واستحضاره يزيد من وعينا بذاتنا، فمن جهة يحضر الماضي التاريخي لا ليمثل الآخر فقط، وإنما يظهر أيضاً كعامل محوري في الحاضر، وهو ليس بالضرورة حداثياً، ومن جهة أخرى فنحن نعترف أن الماضي –مثله كمثل العديد من جوانب الهوية الثقافية– مُتخَيل ومبني [بطريقة] أقرب إلى السرد الروائي الذي بإمكاننا الاستمرار فيه أو التوقف.

إن الهدف من الفصول اللاحقة هو توضيح أن فكرة القرون الوسطى كما تطورت من سياقها الابتدائي في الوعي التاريخي للغرب الأوروبي هي جزء مما نسميه أزمة الهوية، وهي شعور عميق بالشك تجاه ماهية الغرب، وما يجب أن يكون عليه، إذ إن فكرة النقاء الأوروبي في العصور الوسطى تتفاعل مع شعور بالقلق تجاه أصول أوروبا، والغرب عموماً[1].

إن تعريف الثقافة القروسطية –وبخاصة الأدب والفن المعماري منذ بدايات تشكيل هذا التعريف في عصر النهضة وصولاً إلى القرن العشرين– كان يتضمن دائماً فكرة الغرب، وبالتالي فكرة ما ليس بغربي، وهكذا فإن طرحنا يتضمن أن الماضي هو بلد آخر انقطعت علاقتنا به في بعض النواحي،

(1) للمزيد من التحليل لعدم الاستقرار في الخطاب الاستشراقي راجع:

Lisa Lowe, Critical Terrains: French and British Orientalisms (Ithaca: Cornell University Press, 1991. Benedict Anderson, Imagined Communities: Reflections an the Origin and Spread of Nationalism (London: Verso, 1983); and Homi K. Bhabha, Nation and Narration, ed. Homi K. Bhabha (London: Routledge, 1990) and Homi K. Bhabha, The Location of Culture (London: Routledge, 1994. Anthony D. Smith, Myths and Memories of the Nation (NewYork: Oxford University Press, 1999) and Anthony D. Smith, The Ethnic Origins of Nations (Oxford: Basil Blackwell, 1987).

غير أن بعض الدراسات المنضوية تحت عنوان ما بعد الكولونيالية، أو دراسات ما بعد الحداثة أضافت العديد من التعقيدات حول تعريفنا للماضي، وما عنيناه «بالبلد الآخر». قد يكون «البلد الآخر» هو مكان وجود الآخرية، إنه المكان البعيد عن الوطن. ولكن طبقاً لإدوارد سعيد، فإن «البلد الآخر» قد يكون الفضاء المُتخيل الذي نعكس فيه رغباتنا ومخاوفنا.

وبالنسبة إلى دعاة القوميات، فإن البلد الآخر أقل مرتبة دائماً، وهكذا يجب إخضاعه بالاحتلال، غير أن هذه التقسيمات الصارمة بين بلد وآخر تخضع في الحقيقة إلى حركة التأثير والتأثر، وبقدر ما يحاول المحتل استعمال خطاب القوة والسيطرة على البلاد الأخرى، فإنه يتأثر ويتغير بوجوده وتفاعله مع من يحاول إخضاعهم.

تعد العصور الوسطى حالة بحثية صعبة لإعمال الأفكار التي نريد طرحها، وذلك لأن هذه الفترة أرض خصبة للعديد من النظريات، والطروحات المختلفة، مما يجعلها تصنيفاً محدداً يمكن الغوص فيه، ويختلف عن جميع التصنيفات العشوائية الأخرى للماضي، غير أن «القروسطية» وهو المصطلح الذي سنستعمله؛ لتأكيد التصنيف والفترة الزمنية، تعد حالة بحثية صعبة كذلك بسبب تناولها مؤخراً كأحد المكونات المهمة لتعريف الذات.

مثلت النزعة القروسطية في القرن العشرين –بالنسبة إلى القارئ العادي، وحتى الأكاديمي في بعض الأحيان– مرادفاً للهروب من الواقع إلى المتخيل هذا المتخيل الذي رسمه وروج له كتاب مثل تولكين[1]، وصنعه مبدعون مثل ديزني، وأضاف إلى صورته عدد هائل من المعارض التجارية، والمطاعم، والمحال التي كانت تستخدم رموز القرون الوسطى لأغراض تجارية. وهكذا

(1) تولكين: جون رونالد رويل تويل تولكين المتوفى عام 1973، كاتب وروائي وأستاذ جامعي إنجليزي، عرف بشكل خاص برواياته الملحمية «سيد الخواتم» و«الهوابيت»، عمل أستاذاً لمادة اللغات الأنجلوسكسونية في جامعة أكسفورد. (المترجم)

أصبح عالم القرون الوسطى خيالياً ساذجاً يصلح للأدب الشعبي، ويمثل مادة للأفلام السينمائية، وألعاب الفيديو، لكنه فقد بذلك دوره الخطابي الحيوي في علاقته مع الحاضر، وإسهامه في تكوينه، فلم تعد القرون الوسطى تلك الفترة المثالية التي تُرجى استعادتها، بينما بقيت تداعياتها الخطابية السلبية –من «العدالة القروسطية»، حتى الظروف الاجتماعية والممارسات التي كانت سائدة في الدول الإسلامية– طيَّ الكتمان.

لم تكن الحال كذلك دائماً، ففي القرن التاسع عشر ظهرت النزعة القروسطية، لتمثل مخرجاً مثالياً من الواقع السائد، وتم تأطيرها في مصطلحات سياسية محددة، ليظهر كتّاب تمثلوا هذه النزعة في كتاباتهم النقدية مثل: السير والتر سكوت، وتوماس كارليل، وجون راسكن، ووليام موريس. وهكذا أخذ الأدب القروسطي في القرن التاسع عشر يخط مساراً سياسياً واضحاً؛ للانتقال من نظام أبوي محافظ نحو الاشتراكية المثالية؛ أي من اليمين إلى اليسار، حتى وإن كان ذلك بخطوات متعثرة أحياناً، لكننا مع ذلك نعتقد أن فترة القرون الوسطى تبقى دائماً منطقة مفتوحة للسجال، بما تثيره من إشكالات تنعكس على المقتضيات السياسية التي يعرضها دعاة النزعة القروسطية.

ينعكس الغموض السياسي في الدعوة؛ لاستدعاء الماضي على المستوى الأدبي والسياسي، وعلى المناهج التي نستخدمها في التواصل مع ذلك الماضي. وكما حدث في القرن العشرين من تحويل القرون الوسطى إلى عالم مُتخيل، سعت الدراسات الحديثة كذلك إلى البحث عن النقاء في القرون الوسطى عبر المنهج والمحتوى، إذ نظرت هذه الدراسات إلى القرون الوسطى بوصفها فترة خالية من مواضيع الصراع الموجودة في الثقافة المعاصرة، غير أن المادة التي سنقدمها في الفصول القادمة تُظهر بوضوح أن عدداً من مواضيع الخطاب النقدي الحديث مثل التمييز العرقي، والجنسوي، والمسائل القومية، والحداثة،

لها جذور ممتدة في التاريخ القروسطي الذي كان يعد حتى وقت قريب خالياً ونقياً من هذه الاهتمامات. ومع ذلك، فلسنا مهتمين في هذا البحث بتطبيق نظريات الجنسوية أو ما بعد الحداثة، مثلاً، على النصوص القروسطية، ولكن اهتمامنا سينصب على كشف النقاب عن القوالب والنماذج التي حاكها مبجلو القرون الوسطى، ولاعنوها على حد سواء، إذ تحمل المصطلحات القروسطية الضدين معاً، ولطالما نظر الغرب إلى القرون الوسطى على أنها تضم الـ«نحن» والآخر، وتعبر عن الوحدة والفوضى في الآن ذاته، والمثال الأنثوي المفرط، وشبيهه الذكوري أيضاً.

تبحث فصول هذا الكتاب في عدة مواضيع مثل: الأدب، والفن المعماري، والتاريخ، والمنهجية التي ميزت القرون الوسطى، فلقد ظهرت في القرنين السادس عشره والسابع عشر اتجاهات تُدين القوطية[1]، وتدافع عن الكلاسيكية الجديدة، في خطاب استغرابي يعتمد نماذج من الثقافات الشرقية، وظهر ذلك جلياً في عدد من الأجناس الثقافية التي أكدها أصحاب النزعة القروسطية كرموز قروسطية مثل الفن المعماري القوطي، والأدب الرومانسي القروسطي. أما العمارة القوطية، فقد كانت تُقرأ أنها عمارة محلية غربية، فالأقواس التي تميز الأسقف القوطية ترمز إلى الأشجار الضخمة في شمال أوروبا، غير أن تلك القراءة تؤكد أيضاً الهمجية التي عُرف بها القوطيّون في أوروبا، وفي أحيان أخرى كانت الأقواس القوطية ذات الرؤوس المدببة تُعزا إلى تأثير الشرق الإسلامي «الذي يكتسح العالم المتحضر ويهدد العمارة الكلاسيكية»[2]. وفي

(1) القوطية: Golhic نسبة إلى قبائل القوط الجرمانية التي ظهرت أولاً في شمال أوروبا ثم انتقلت جنوباً لتحتل ألمانيا الحالية واسبانيا وإيطاليا. انعكس اسم القوطيين على عدد من مجالات الثقافة في أوروبا القروسطية مثل المعمار القوطي والأدب القوطي. (المترجم).

(2) John Evelyn, tr. Roland Freart, A Parallel of the Ancient Architecture with the Modern (London: J. Walthoe, 1733), 9.

هذا السياق، يقول كريستوفر رين (1632–1723)، وهو المهندس المعماري الذي أشرف على بناء كاتدرائية سانت بول، مدافعاً عن أسلوبه الكلاسيكي في المعمار: «إن الأسلوب الشرقي في البناء ينتشر في جميع أنحاء أوروبا ولاسيما في فرنسا»[1].

الحال كذلك بالنسبة إلى الأدب القروسطي، أو على الأقل الأدب الرومانسي القروسطي، إذ اعتبره مؤيدوه سجلاً للتاريخ الوطني لأوروبا، لكنه أدب أجنبي، وشرقي على وجه الخصوص في عدد من مفاهيمه أيضاً، وقد كان رواد الأدب الرومانسي في القرن الثامن عشر يعتزون بأصوله غير الغربية، ويرون في الدفاع عن هذا الأدب دفاعاً عن الفن الروائي عامة، ودفاعاً عن جوهر الإبداع ذاته[2]. ولعل هذا الدفاع المستميت عن هذا النوع من الأدب يرجع إلى الآخرية otherness بشقيها الداخلي، والخارجي، فمن جهة هي آخرية الداخل؛ أي الماضي الهمجي لأوروبا، ومن جهة أخرى هي آخرية الخارج؛ أي نموذج الأدب الشرقي.

تعبر الصور المجازية في الدراسات المتقدمة للأدب الرومانسي عن نماذج الأجناس واختلاطها، وخلافاً لما قدمته الأشكال الثقافية القروسطية على يدي روادها في عصر النهضة، فإن كتاب القرن الثامن عشر كانوا في الواقع

(1) Christopher Wren, "On the State of Westminster Abbey," in James Elmes, Memoirs of the Life and Works of Sir Christopher Wren (London: Priestley and Weale, 1823), 110.

(2) للمزيد عن الأدب الرومانسي في القرن الثامن عشر راجع:

Arthur Johnston, Enchanted Ground: The Study of Medieval Romance in the Eighteenth Century (London: Athlone Press, 1964. Rene Wellek, The Rise of English Literary History (Chapel Hill: University of North Carolina. Press, 1941) and Rene Wellek, A -History of Modern Criticism: 1750-1950 (New Haven: Yale University Press, 1955).

منجذبين إلى الأشكال الثقافية التي تعبر عن التمازج، كما يعبر عن ذلك توماس وارتون (1728–1790) في مقدمة كتابه «تاريخ الشعر الإنجليزي»، حيث يقول إن الأدب الرومانسي القروسطي، والأدب الروائي عموماً نشأ من اللقاء الثقافي بين الشرقيين والصليبيين. وفي الفترة ذاتها تقريباً، تُرجم مقال بيير دانيال هويت إلى الإنجليزية، وقد كان يحمل تقريباً الرسالة نفسها، إذ يفترض أن جذور الأدب الرومانسي القروسطي تعود إلى التأثير المغربي في إسبانيا، ويضيف هويت: إن الأدب الروائي ذاته بما يحمل من مجاز، وبلاغة قد نشأ في الشرق، ثم عبر إلى الغرب سالكاً طرقاً متعددة[1]. ثار جدل كبير حول موضوع الأصول –خلال فترة ما قبل الأكاديمية–؛ لإعادة بناء الأدب القروسطي، وقد حمل لواءه جوزيف ريتسون، ولكن مثلث الأدب الرومانسي، والرواية، والشرق ظل موضوع هذا الجدل الأساسي مدة طويلة[2]. وقد كانت استعادة تلك الأشكال الأدبية في القرن الثامن عشر بمثابة تمجيد ل «اللاغربي» وهذا ما كان يرفضه دعاة النهضة.

وهكذا يمكن أن نقول: إن تراث القرن الثامن عشر كان زاخراً بسحر الشرق، والتأثير العجائبي للعالم البدائي، وقد أسس أبطال الرومانسية الغربية عالماً قروسطياً يعتمد على الماضي الأوروبي المحلي، والآخرية المبهرة في الشرق[3].

كانت العلاقة بين الرومانسية، والقروسطية، والاستشراق واضحة وعميقة،

(1) Pierre-Daniel Huet, A Treatise of Romances and Their Original (London: Printed by R. Battersby for S. Heyrick, 1672).

(2) Joseph Ritson, Ancient Engleish Metrical Romancees (London: W. Bulmer and Company, for G. and W Nicol, 1802), xxviii.

(3) Richard Hurd, Hurd's Letters on Chivalry and Romance, with The Third Elizabethan Dialogue (New York: AMS Press, 1976), 154.

لدرجة أنها اتخذت طابع الذوق الخاص في الأدب والمعمار، وكما يقول إدوارد سعيد في مقاله عن رايموند شواب: «إن الارتباط بين هذه المواضيع الثلاثة ولّد علاقة ديناميكية وطاغية، إذ يعد شواب الحركة الرومانسية نهضة ثانية، غاصت عميقاً في الشرق، ونظرت إلى التركيبة الثقافية القروسطية بمزيد من الوعي والتقدير، تماماً كما أعاد عصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر النظر في اللغات الغربية، والثقافات الكلاسيكية ممهداً لظهور مصطلح «القرون الوسطى»[1]». وهكذا فقد غيرت الثورة الرومانسية الخطاب القروسطي بصورة عميقة تتخطى حدود الحماس المؤقت، مع أن هذا الحماس كان عاملاً شديد الإيجابية فيه، إذ ساهم من جانب أعداء القوطية في تغيير الصورة الرهيبة التي وصمت الأدب القوطي، والعمارة القوطية بالهمجية، والوحشية، وإعادة الاعتبار لذلك الأدب، وتلك العمارة بوصفهما جزءاً لا يتجزأ من الثقافة والحضارة الإنسانية، كما لم تعد الثقافات البدائية (القوطية) مرادفاً للانحدار والتدهور، بل أصبحت نقطة للانطلاق، وصورة من صور الاختلاف المطلوب.

تقاطع هذا المفهوم الجديد للقرون الوسطى باعتبارها حاضنة للقدرات الإبداعية لهذا الشرق الذي يختزن موهبة الخيال، وهو أيضاً السجل الأول للأصول التاريخية، مع حقيقة التوسع التجاري، وبداية المشروع الإمبريالي بما يتضمنه من مشاريع ثقافية مساندة تساعده على التوسع والامتداد، فظهرت دعوة السير وليام جونز لتأسيس الجمعية الآسيوية للبنغال بالتزامن من طروحاته حول اشتراك اللغات الكلاسيكية الغربية، واللغة السنسكريتية في أصول مشتركة؛ ليمتد أثر هذه الأفكار إلى الرومانسية الألمانية[2].

(1) Edward W Said, The World, the Text, and the Crifit) (Cambridge, MA.: Harvard University Press, 1983), 248-67.

(2) George W Stocking, Victorian Anthropology (New York: Free Press, 1987),

كان السير جونز (1746–1794) يعتقد أن اللغات ليست العامل المشترك بين هاتين الثقافتين فقط، وإنما هناك الأساطير الدينية أيضاً، وفكرة الشرك، وتعدد الآلهة بعد التوحيد. كل هذه الأفكار دفعت بأشخاص مثل فريدريش شليغل (1772–1829) إلى الاهتمام، والبحث في اللغة السنسيكريتية، وبدأ يظهر تصور خيالي للعصر الهندي الذهبي، الذي سيسبق الوحدة الروحية للقرون الوسطى، غير أن هذه المثالية لم تدم طويلاً في بدايات القرن التاسع عشر، فقد بدأت نظريات جونز تهتز وتظهر أدلة جيدة تشكك في صحتها، ومع ذلك فإن مفهوماً عاماً باشتراك الحضارة الأوروبية مع الهندية، والحضارات الأخرى في أصل واحد، مثل الغصون التي تشترك جميعاً في الشجرة ذاتها، بقي هو التفسير السائد للأدلة الجديدة التي ظهرت حول الأصول اللغوية المشتركة.

وإذا ما تتبعنا ريموند شواب في كتابه «عصر النهضة والاستشراق» سنجد أن النهضة في القرنين الخامس عشر، والسادس عشر كانت إعادة اكتشاف أوروبا من جديد، وتمثيلها أمام ذاتها[1]. لقد كانت أوروبا هي العالم كما نعرفه، وماضيها هو التاريخ كما عرفناه، ويبرر هذا فهم عصر النهضة للقرون الوسطى بأنها الغزو والهروب في آن، والأجنبي والأهلي في وقت واحد. يرى شواب أن الرومانسية تمثل «نهضة استشراقية»، تعترف بالدور الحيوي لآسيا والشرق الأوسط، وهكذا فهي تُقر بتعددية العالم، ويستعير شواب مصطلحه هذا من إدغار كونيت[2] (1803–1875)، حين قارن الأخير دور السنسيكريتية في القرن

23; Thomas R. Trautmann, Aryans and British India (Berkeley: University of California Press, 1997. Tony Ballantyne, Orientalism and Race: Aryanism in the British Empire, Cambridge Imperial and Post -Colonial Studies Series (NewYork: Palgrave, 2002).

(1) Raymond Schwab, Oriental Renaissance: Europe's Rediscovery of India and the . East, 1680-1880 (NewYork: Columbia University Press, 1984).

(2) إدجار كونيت: مؤرخ ومفكر فرنسي، شارك في الثورة عام 1848، وله عدد من المؤلفات التاريخية

التاسع عشر بدور المخطوطات الإغريقية والرومانية في عصر النهضة.

كانت أوروبا هي القاعدة الأساسية للنهضة في الإنسانيات، وكل ما أنتجته من فنون مرئية وتشكيلية، غير أن الرومانسية كانت ثورة لفظية، لا في الشعر وحسب وإنما في اللسانيات والبحث عن الأصول وتأثيراتها المختلفة أيضاً. لقد قام شواب بوضع خطوط عريضة، لتصنيف الشرق حسب ما يعنيه في الأشكال الاستشراقية المختلفة، بما فيها الشرق في الكتاب المقدس، والشرق الآشوري؛ أي شرق ما قبل المسيحية، والشرق الإسلامي، والشرق الفارسي، والشرق الصيني، في حين اعتبر الهند «الأثر الحديث»، وهي الجغرافيا الضاربة في التاريخ الذي يشكل الخطاب القروسطي الاستشراقي.

بعد ضم الهند للإمبراطورية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وظهور التأثير القومي للأعراق كعامل حاسم في التاريخ، وفي مفهوم الارتباط بين الحضارة والتقدم، تم استبدال مفهومي حتمية الخطيئة[1] والمساواتية[2] في الرومانسية الاستشراقية بالتأريخ لمرحلة الاحتلال.

كيف يمكن التوفيق بين وجود أدلة على الماضي العظيم للحضارة الهندية، والطموحات الكولونيالية في احتلال الأراضي الهندية وحكم شعبها الذي تراه أدنى درجة وأقل تحضراً؟ لقد كان هناك اعتقاد بأن ذروة الحضارة الهندية تجلت في أثناء فترة الحكم الآري[3] للهند، وإخضاع الحضارة الدرفيدية[4]،

والأدبية. (المترجم)

(1) حتمية الخطيئة Prelapsarianism : اعتقاد قدمه للمرة الأولى ثيودور بيزا، ويفيد بأن الله حكم على الإنسانية بالخطيئة حتى قبل الخطيئة الأولى. (المترجم)

(2) المساواتية: Equalitarinism مذهب المساواة، وهو دعوة سياسية إلى المساواة السياسية والاجتماعية بين كل المواطنين منذ الولادة، ويكون الجميع سواسية تحت مظلة القانون والمجتمع. (المترجم)

(3) الآريون: هم شعب زجفارا بالهند، وهم شعب أبيض البشرة، كان يسكن المناطق الممتدة من آسيا الوسطى حتى شرق أوروبا، وتعد لغتهم الآرية أساس اللغات الهندية الأوروبية. (المترجم)

(4) الدرفيدية: تنتشر السلالة الدرفيدية في الهند وسيرلانكا وبنغلادش وسلطنة عُمان، ويقول بعض

وهكذا تحول التاريخ العريق للهند وصلته البعيدة بالغرب إلى جزء من التاريخ القروسطي، كما جاء في مماثلة السير هنري ماين (1822–1888) بين الأنجلوسكسونية والقرية الهندية.

لقد تم توظيف صيغة الجمع في مصطلح القرون الوسطى في اللغة الإنجليزية كذلك؛ للإشارة إلى البعد التاريخي للهوية الوطنية بعد الاحتلال، مقارنة مع المصطلح المفرد: «القرن الأوسط» في الدراسات السابقة باللغة الفرنسية والألمانية[1].

حاول ماين تبرير المحاولات البريطانية؛ لتحديث الهند بالادعاء أن هذا التطور كان حتمية محلية، وأكد ذلك بالقياس على القرون الوسطى، فكما يقول فريدريش كارل فون سافجني (1779–1861): إن فرض القانون الروماني على مؤسسة القرية الجرمانية انتقل بالقرية إلى أسس الدولة الحديثة. وقد تزود ماين بنظريات جي. إم. كمبل (1807–1857) حول الأنجلوساكسونية مشيراً إلى نقاط الشبه بين القرية الأنجلوساكسونية في القرون الوسطى والقرية الهندية الآن[2].

لقد استمدت هذه الأفكار مادتها الأساسية من المعارض الدولية التي انتشرت في أوروبا على نطاق واسع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث

العلماء أن أصول هذه السلالة قد تعود إلى جنوبي العراق، ومنها انتشرت إلى الهند وإلى عُمان قبل 8000 عام. (المترجم)

(1) R.J. Smith, The Gothic Bequest: Medieval Institutions in British Thought, 1688-1863 (Cambridge: Cambridge University Press, 1987)

(2) George W Stocking, After Tylor: British Social Anthropology, 1888-1951 (Madison: University of Wisconsin Press, 1995. Bruce Dickins, J.M. Kemble and Old English Scholarship (London: H. Milford, 1940) and Eleanor Nathalie Adams, Old English Scholarship in England from 1566-1800 (New Haven: Yale University Press, 1917. Ronald B. Inden, Imagining India (Oxford: Basil Blackwell, 1990).